خاتم الأنبياء والمرسلين في الكتاب المبين
-دراسة دلالية-

الأستاذ المساعد الدكتور: يونس حمش خلف

The Last of prophets and messengers in the holly Quran (indicative study)

Asst.Prof.,phd. Yunis Hamash Khalaf

Whatever we wrote on the biography of the Prophet (Mohammed), we will not be fair about Him. the study between our hands is a linguistic and indicative study that eager to reaches the meaning of the proverbs that belong to his biography and his rules which he ordered (May Allah bless Him), and the different speech between him and other prophets and messengers that Allah spoke with him .and it eager to reach the synonyms meanings and the events that happened through the indicative linguistic understanding for the proverbs that sent to the Prophet and his blessed career

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبيـــاء والمرســـلين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

توفرت لدي رغبة جامحة في الكتابة حول شخصية إنسانية نادرة المثيل، إن لم نقل ليس لها نظير في دنيا البشر، إنه النموذج الإنساني الرائع الذي أثر في حياة البشرية جمعاء، إنه نبينا محمد بن عبدالله ﷺ .

هذا الرسول الصادق الأمين الذي حبا البشرية من قلبه ووجدانـــه الشـــيء الكثير، مما جعل منزلته الأولى من بين الشخصيات التي قادت البشرية، ورســـمت لها معالم الطريق، الذي يجب أن تسير وفق منهجه القويم وصراطه المستقيم دونما انحراف أو زيغ.

فشخصية الرسول الكريم ﷺ، التي التقى في بنائها وتكوينها عناية إلهية، هي في القمة التي تعانق عندها الوحي بالفكر، فأنتجت لنا معجزات العبقريـــة البشـــرية والإرث الإنساني الرائع، حيث تلاقحت البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء.

ومنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إظهار محاسنه، ونشر ســـيرته العطرة، فقلوبهم تهفو إلى محبة رسولهم ﷺ، وتتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينهم وبينه.

ومن هنا جاءت فكرة الكتابة في هذا الموضوع الموسوم: (خـــاتم الأنبيـــاء والمرسلين في الكتاب المبين ــ دراسة دلالية ــ). وما أسطره ليس التاريخ ولـــيس السيرة، وإنما هي جوانب من هذه الشخصية ، ومواقف تتجلى فيها أحداث الماضي وارتباطها بالواقع، وآثرت أن تمتزج الموضوعات بمدلولاتها اللغوية، لما في ذلـــك من أثر في توضيح الأشياء وإعطائها بعداً لغوياً، يكشف لنا دلالات جديدة، ويكسبها صبغة لغوية لم نألفها من قبل.

واقتضت طبيعة المادة التي توفرت لدي أن تنتظم في عدة موضوعات هي:

1. حياته: أ ــ ولادته. ب ــ وفاته. 2. الدلالة اللغوية لاسـمه. 3. قصـة نزول الوحي. 4. مشهد الإسراء والمعراج. 5. أخلاقه وشـمائله. 6.مكانتـه بـين الأنبياء والرسل. 7. الدلالة اللغوية لخاتم الأنبياء.

ويسبق ذلك كله التمهيد: الذي تطرق إلى الدلالـة اللغويـة لكلمتـي النبـي والرسول.

وبدأت بتحديد الدلالة اللغوية للألفاظ التي تضمنها البحث من خـلال كتـب اللغة كالمعجمات وما إليها. وأفدت من كتب تفسير القرآن الكريم بحسب مـا وقـع منها تحت يدي،

وكذلك كتب معاني القرآن. كما رجعت إلى قسم من كتب الحديث ، لكي أخرج مـا ورد في البحث من أحاديث لاسيما الكتب الصـحيحة، مثـل: صـحيح البخـاري، وصحيح مسلم، وغيرهما.

وأخذت من كتب السيرة التي تتحدث عن شخصية الرسول الأكرم ﷺ، وعلى رأسها سيرة ابن هشام. فضلاً عن كتب حديثة ألفت في هـذا المجـال وردت فـي هامش البحث، وانتهى البحث بخاتمة تضمنت النتائج التي توصل إليها البحث، ثـم قائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

وإنني أدخلت نفسي مدخلاً صعباً حين خضت غمار هـذا البحـث، فشـأن رسول الله ﷺ أعلى وأسمى، والتصدي لذلك يحتاج إلى وقت وجهد، لذا فإني أقـر بتقصيري وعدم إيفائي الموضوع حقه، ولكن حسبي أني وقفت عند جوانب محددة، أرجو أن أكون قد وفقت في إبرازها. فإن أصبت فذلك من فضل ربي وعنايته، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، ومن الله التوفيق فهو حسبنا ونعم الوكيل.

الأستاذ المساعد الدكتور
يونس حمش خلف محمد
قسم اللغة العربية
معهد إعداد المعلمات الموصل
9/ 9/2009

التمهيد

الدلالة اللغوية للنبي والرسول

إن تحديد المصطلحات اللغوية يمكن أن يعد من المشـــكلات التـــي تواجـــه الباحث في الدراسات اللغوية. ولعل السبب في وجود مثل هذه الصعوبات، هو كون اللغة العربية من اللغات الحية، التي تشبه الكائن الحي من حيـــث التغيـــر والنمـــو باستمرار، أو أن السبب في ذلك يرجع إلى تعدد اللهجات العربية التي تعـــيش فـــي بيئات مختلفة. فالكلمة لا تحمل إلا دلالة واحدة في أصل وضعها اللغـــوي، بيـــد أن التطور يكسبها دلالات جديدة، وفق حتمية التطور الذي تتصف به اللغات الحية.

ومن هذه الألفاظ لفظتا النبي والرسول، اللتان تحملان دلالة محددة في أصل وضعهما اللغوي، ولتحديد الدلالة اللغوية لهاتين الكلمتين، وكـــذلك دلالتهمـــا فـــي الاصطلاح لا بد من متابعة ذلك في اللغة.

أـــ دلالة النبي:

كلمة النبي ترجع إلى مادة نبأ، والأصل اللغوي لمادة (ن ب أ) ، هو الإتيان من مكان إلى مكان، يقال للذي ينبأ من أرض إلى أرض نابيء، وسيل نابيء: أتـــى من بلد إلى بلد، ورجل نابيء مثله. ومن هذا القياس النبأ: الخبر: لأنه يـــأتي مـــن مكان إلى مكان، والمنبيء هو المخبر[1]. ومن هذا المعنى أخذ النبي ؛ لأنه أنبأ عن الله تعالى[2].

ويعرّف النبي: "بأنه من أوحي إليه بملك أو ألهم في قلبه، أو نبـــه بالرؤيـــا الصالحة" [3]. فالنبي: إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع ، ولكنه لم يكلف بالتبليغ" [4].

ومن العرب من يهمز كلمة النبيء: على وزن (فعيل) مهموز فاشية، وقرئ بهما في القراءات السبعة[1]. وعلى الرغم من أن النبي على وزن (فعيل) إلا أنه

---

(1) ينظر: المقاييس: 973.

(2) العين: 933.

(3) التعريفات: 131.

(4) النبوة والأنبياء: 17

يكون بمعنى فاعل لقوله تعالى: (نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الحجر:49). أو يكون بمعنى المفعول، لقوله تعالى: (قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ) (التحريم:3) [2] . وفي ذلك مبالغة في النبأ الخبر؛ لأنه ينبئ عن الله تعالى.

ولما كانت الهمزة من الأصوات الشديدة في اللغة العربية، فإن اللغة تميـل إلى التخفيف لاسيما في البيئة الحضرية، لذلك فإن قسماً من القبائل العربية قد مالت إلى تركه، وفي ذلك يقول سيبويه:" ليس أحد من العرب إلا ويقول: تنبـأ مسـيلمة بالهمز، غير أنهم تركوا الهمز في النبي، كما تركوه في الذرية والبرية والخابية إلا أهل مكة، فإنهم يهمزون هذه الأحرف، ولا يهمزون غيرها، ويخالفون العرب فـي ذلك، والهمز في النبيء لغة رديئة" [3].

وجاء الوصف بالرداءة لقلة استعمال هذه اللغة، فالقياس لا يمنع من ذلك، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ، وقد قيل له: (يا نبيء الله ، فقال له: لا تنبر باسـمي فإنما أنا نبي الله)[4]. والمعنى الذي أراده الأعرابي حين خاطـب رسـول الله ﷺ، بقوله: (يا نبيء الله)، أي يا من خرج من مكة إلى المدينة، فـأنكر الرسـول ﷺ الهمز[5].

مما تقدم يتضح أن النبي يجوز فيه الهمز، كما يجوز تركه وهو الأكثر فـي لغة العرب، لأن علم اللغة الحديث يشير إلى أن اللغات تتطور وتسير في تطورهـا نحو التسهيل. وقد لاحظنا أن رسول الله ﷺ، أنكر على من يهمز. وكأن همز هـذه

---

(1) المصباح المنير:591/2.
(2) المفردات:483.
(3) الكتاب: 555/3.
(4) النهاية في غريب الحديث: 3/5.
(5) ينظر: الصحاح: 1014.

الكلمة خاص في كل من ادعى النبوة فقط. وفي هذا المعنى قال سيبويه:" ليس أحد من العرب إلا ويقول: تنبأ مسيلمة بالهمز، غير أنهم تركوا الهمز في النبي" [1].

ب ــ دلالة الرسول

الرسول في اللغة مأخوذ من مادة رسل، والأصل في هذه المادة (ر س ل)، يدل على الانبعاث والامتداد. يقال: ناقة رسلة سهلة السير، ومن هذا المعنى جاءت كلمة الرسول المنبعث. وتصور منه تارة الرفق، فقيل: على رسلك إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول[2] . ومن ذلك يمكن تعريف الرسول في اللغة بأنه :"الذي يتابع أخبار الذي بعثه"[3]. أو" هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض" [4].

والرسول على وزن (فعول) بمعنى مفعول، وسمي بذلك لأنه ذو رسالة يؤديها، من أرسلت رسولاً إذا بعثته برسالة كي يؤديها، ويجوز استعماله بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمجموع [5].

أما في الاصطلاح: فيعرّف الرسول بأنه" إنسان بعثه الله إلى الخلق ليبلغ الأحكام"[6]. أي أنه أوحي إليه بشرع ثم أمر بتبليغه. فالرسالة أعلى مرتبة من النبوة[7].

ومن الناس من لا يفرق بين لفظ النبي والرسول، ويرى بأن الكلمتين مترادفتان، فإن الله تعالى خاطب نبينا محمداً ﷺ ، مرة بالنبي، وبالرسول مرة أخرى. في حين يرى أبو هلال العسكري أن بين الكلمتين فروقاً منها:" أن النبي لا

---

(1) اللسان: 421/8.
(2) ينظر: المقاييس: 382.
(3) اللسان: 142/4.
(4) التعريفات: 64.
(5) ينظر: المصباح المنير: 226/1.
(6) التعريفات: 64.
(7) النبوة والأنبياء: 17.

يكون إلا صاحب معجزة، وقد يكون الرسول رسولاً لغير الله تعالى، فلا يكون صاحب معجزة. والإنباء عن الشيء قد يكون من غير تحميل النبأ، والإرسال لا يكون إلا بتحميل. والنبوة يغلب عليها الإضافة إلى النبي، فيقال: نبوة النبي ؛ لأنه يستحق منها الصفة، التي هي على طريقة الفاعل. والرسالة جملة من البيان يحملها القائم بها يؤديها إلى غيره. والنبوة تكليف القيام بالرسالة، فيجوز إبلاغ الرسالات، ولا يجوز إبلاغ النبوات" (1). ويبدو أن بين الكلمتين صلة بالوحي الخاص، الذي فوق وحي النبوة، فالرسول أخص من النبي.

ومهما كان الاختلاف في كلمتي النبي والرسول، فإن هناك اتفاقاً بين العلماء على أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، وبهذا المعنى قال الفراء: " كل رسول نبي من غير عكس" (2).

والله سبحانه وتعالى يصطفي من خلقه ما يشاء لحمل رسالته وتبليغها إلى الناس، وجعل الله تعالى النبوّة خاصة بالرجال. والحكمة من ذلك ؛ لأن النبوة عبء ثقيل وتكليف شاق لا تتحمله طبيعة المرأة. ولهذا السبب كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم. وسنتحدث عن شخصية خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ، بشكل موجز وبسيط.

1 ـــ حياته

أولاً ـــ ولادته:

كانت ولادة نبينا محمد ﷺ ، على الأرجح يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل (3). وفي اليوم السابع من ولادته سماه جده عبد المطلب محمداً، وهي تسمية أعانه عليها ملك كريم. ولم يكن العرب يألفون هذه الأعلام ؛ لذلك سألوه: لم رغب عن أسماء آبائه؟ فأجاب: أردت أن يحمده الله في

---

(1) الفروق اللغوية:285.

(2) اللسان: 421/8.

(3) البداية والنهاية: 260/1.

السماء، وأن يحمده الخلق في الأرض. فكأن هذه الإرادة كانت استشفافاً للغيب، فإن أحداً من خلق الله لا يستحق الشكر والثناء على ما أدى، كما يســتحق ذلــك النبــي المُحَمَّدُ ﷺ [1].

وجاءت في القرآن الكريم قصة أصحاب الفيل؛ إذ سمّى الله تعــالى إحــدى سور القرآن الكريم باسم (سورة الفيل). ويذكر أن قوماً من العرب كــانوا بــبلاد النجاشي، فأججوا ناراً استعملوها لبعض ما احتاجوا إليه، ثم رحلوا ولم يطفئوهــا، فحملتها الريح حتى أحرقت البيت الذي كان مصلاهم، ومثابة للنجاشي وأصــحابه. فقصد مكة مقدراً أن يحرق البيت الحرام، ويستبيح أهل مكة. فلما قربوا من الحــرم لم تسر بهم دوابهم نحو البيت، فإذا عطفوها راجعين ســارت، فــوعظهم الله أبلــغ موعظة ، فأقاموا على قصد البيت وعلى أن يحرقوه، فأرســل الله علــيهم طيــراً أبابيل[2]. ومعنى (الأبابيل): أي جماعات، وهي صفة للطير، والســجيل الشــديد، وقيل: حجر وطين.

وكانت طيراً خرجت من البحر خضراً طوال الأعناق، قال ابن عباس ﷺ :" إذا أرسل الله تعالى على قوم عذاباً لم يفلتهم، فما أفلت منهم إلا ســائس الفيــل أو قائده، فقيل: ما وراءك؟ فقال: أتت طير مثل هذا، وأشار إلى طائر في الهواء. وكان الطائر قد اتبعه بحجر فأرسله عليه فقتله" [3]. "وبذلك الجيش السماوي أهلــك ذلــك الجيش الأرضي بدون أن يتصوره أحد، ومعنى ذلك أن الله تعالى إذا أراد صــيانة شيء حفظه، وهو على الله سهل يسير"[4].

ويعد هذا من فضل الله تعالى على أمة العرب، فلما بعث الله تعــالى ســيدنا محمداً ﷺ ، كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله، ما ورد من أمــر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم. ومنذ ذلك الحين أعظمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل

---

(1) ينظر: فقه السيرة: الغزالي: 61.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 278/5.
(3) إعراب ثلاثين سورة: 208.
(4) مواهب الرحمن: 564/7.

الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم. فقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة، وما رد عن قريش من كيدهم[1].

ثانياً ــ وفاته

توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة وزيادة أربعة أيام [2]. قال أنس بن مالك ﷺ:" لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله الأكرم ﷺ ، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فرفع الستر وفتح الباب، فخرج رسول الله ﷺ ، فقامت على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ ، حين رأوه فرحاً به" [3].

وعندما مات رسول الله ﷺ ، ألقى أبو بكر الصديق ﷺ ، خطبته المشهورة ثم تلا قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران: 144). وعن ابن عباس ﷺ ، أن علياً كرم الله وجهه، كان يقول في حياة رسول الله ﷺ :" (أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ علَى أَعقَابِكُمْ)، والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني" [4].

2 ــ الدلالة اللغوية لاسمه:

عُرِفَ رسول الله ﷺ ، بكثرة أسمائه وصفاته، وفي هذا دليل على أهميته ومكانته بين الناس. والاسم الذي اشتهر به هو محمد، الذي يرجع إلى مادة (ح م

---

(1) ينظر: السيرة النبوية: ابن هشام: 3/1.

(2) الرحيق المختوم: 448.

(3) السيرة النبوية: ابن هشام: 167/4.

(4) تفسير القرآن العظيم: 77/2.

د)، ولهذه المادة أصل واحد يدل على خلاف الذم، يقال: حمدت فلاناً أحمده، ورجل محمود ومحمد إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة، قال الأعشى في مدح النعمان بن المنذر:

إِلَيْكَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ كَأَنَّ هِلَالَهَا إِلَى المَاجِدِ الفَرْعِ الجَوَادِ المُحَمَّدِ[1]

ولهذا الذي ذكرناه سمي نبينا محمداً ﷺ بهذا الاسم[2].

فمحمد مأخوذ من الحمد بمعنى المدح والثناء، والحمد الثناء بالفضيلة، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر[3]. ومن هذه المادة أخذ اسم أحمد أيضاً،" وهو من أسماء المصطفى رسول الله ﷺ ، وقد سمي محمداً، وأحمد، وحامداً، وحماداً، وحميداً" [4]، وكل هذه الأسماء مشتقة من هذه المادة نفسها.

ولعل الخليل يشير إلى ما ورد في القرآن الكريم حين قال: " خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: أحمد ومحمد ﷺ ، وعيسى والمسيح، وذو الكفل وإلياس، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، عليهم السلام وعلى غيرهم من الأنبياء" [5].

واسم نبينا محمد ﷺ ، جاء على وزن (مفعّل) وهي صيغة مبالغة تدل على كثرة الحمد وزيادته. وقد ورد هذا الاسم في أربعة مواضع من القرآن الكريم في حين ورد اسم أحمد في موضع واحد منه. وأحمد على وزن (أفعل) وهو اسم تفضيل يعني أنه أحمد من غيره. فالمسيح عليه السلام بشر بالرسول محمد ﷺ ، في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (الصف: 6)." فأحمد إشارة إلى أن النبي ﷺ ، باسمه وفعله

---

(1) الديوان: 71.

(2) المقاييس: 262.

(3) المفردات: 138.

(4) اللسان: 2/585.

(5) العين: 211.

تنبيهاً أنه كما وجد اسمه أحمد، يوجد وهو محمود في أخلاقه وأحواله ، وخص لفظة أحمد فيما بشر به عيسى عليه السلام ، تنبيهاً أنه أحمد منه ومن الذين قبله"(1).

ومن عجائب خصائص هذين الاسمين، هو أن الله عز وجل حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه، أما أحمد الذي أتى في الكتب، وبشرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به غيره. وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ، ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده وميلاده ﷺ (2).

وعبّر القرآن الكريم بأسلوب القصر عن النبي محمد ﷺ ، بأنه أحد الرسل الذين خصهم الله تعالى بالرسالة، جاء ذلك في قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِين) (آل عمران: 144). فمحمد ههنا وإن كان من وجه اسماً له علماً، ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه، كما جاء في قوله عزّ وجلّ : (إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) (مريم: 7) ، أنه على معنى الحياة (3).

وتشير هذه الآية:(144) من سورة (آل عمران) إلى معركة أحد، حيث قتل كثير من المسلمين واعتقدوا أن رسول الله ﷺ، قد قتل يوم أحد، وجوزوا ذلك عليه، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام. وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال:" تفرقنا عن رسول الله ﷺ، يوم أحد فسمعت يهود تقول: قتل محمد، فقلت لا أسمع أحداً يقول ذلك إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ، والناس حوله يتراجعون إليه فنزلت هذه الآية" (4).

وجاء اسم محمد في موضع آخر من القران الكريم في قوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ

---

(1) المفردات: 138.

(2) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 1/ 145.

(3) ينظر: بصائر ذوي التمييز: 2/ 50.

(4) أسباب النزول: الواحدي: 69.

عَلِيماً) (الأحزاب: 40). والسبب في نزول هذه الآية، "هو أنه لما تزوج النبي ﷺ ، زينب، قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله هذه الآية التي تنهى أن يقال: زيد بن محمد، أي لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، ولو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبياً " [1].

وذكر اسم نبينا (محمد) ﷺ ، في (سورة محمد)، التي سميت باسمه في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (محمد: 2). وجاء التعبير القرآني في هذه الآية من باب عطف الخاص على العام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان.

والموضع الأخير الذي ورد فيه اسم نبينا محمد ﷺ، هو في قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) (الفتح: 29). يخبر الله تعالى عن محمد ﷺ ، أنه رسوله بلا ريب، ثم أثنى على أصحابه. فجاءت هذه الآية صورة عجيبة، رسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات، لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة[2]. وكل هذه النعوت الجليلة والأوصاف الجميلة، إنما حدثت لهم من الله سبحانه وتعالى، "ويستفاد من الآية الكريمة أن الغائظ لهم كافر بيقين، وأن المغتبط بهم مؤمن أمين" [3].

3 ـ قصة نزول الوحي

---

(1) الكشاف: 858.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 3331/6.

(3) مواهب الرحمن: 163/7.

لما بلغ رسول الله ﷺ ، الأربعين من عمره نزل عليه الوحي في غار حراء، وحراء جبل يقع في الشمال الغربي من مكة، وكان الرسول ﷺ ، يخلو ويتعبد الليالي الطوال. قالت عائشة رضي الله عنها: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ ، من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها ، حتى فَجِئَهُ الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال: اقرأ، فقال له النبي ﷺ : ما أنا بقاري ، ويتكرر الطلب والرد، لتنساب بعده الآيات الأولى من القرآن: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقْ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: 1-5) [1].

وجاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال عن هذه السورة: هي أول ما نزلت[2]. وجاء في التفسير أن أول آية نزلت من القرآن:(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [3]. وتتابع الوحي إلى رسول الله ﷺ ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم. والنبوة أثقال ومؤنة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه، لما يلقون من الناس وما يرد عليهم مما جاؤوا به عن الله سبحانه وتعالى [4].

وكان رسول الله ﷺ أمياً، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية ومسائل غيبية، كقصة يوسف عليه السلام، وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليم وقصة فرعون وغيرها، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أمياً، قال تعالى:(وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (العنكبوت: 48) [5]. لقد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن

---

(1) صحيح البخاري: 295/4.

(2) الكشاف: 1212.

(3) معاني القرآن وإعرابه: 263/5.

(4) ينظر: السيرة النبوية: ابن هشام: 121/1.

(5) ينظر: فقه السيرة: البوطي: 59.

تأتي بهذا القرآن عمراً، لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل فرد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال الله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ) (الأعراف: 157) [1].

ومما له صلة بالوحي هو نزول القرآن: قال ابن اسحق: ابتديء رسول الله ﷺ ، بالتنزيل في شهر رمضان بقوله عز وجل: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرَآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ) (البقرة: 185). وقال سبحانه وتعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ) (القدر: 1)، وقال سبحانه تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) (الدخان: 3) . دلت هذه الآيات على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، وهي من ليالي شهر رمضان [2].

والسر في إنزاله جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ : هو تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع: أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم ، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة ، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: أنزله جملة ، ثم إنزاله مفرقاً تشريفاً للمنزل عليه [3].

4 ــ مشهد الإسراء والمعراج ودلالاته

أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وقد سمى القرآن الكريم إحدى سوره:(سورة الإسراء)، بهذا الاسم الذي وردت فيه قصة الإسراء. ويشير القرآن الكريم إلى هذه الرحلة بقوله تعالى:

---

(1) تفسير القرآن العظيم: 119/6.

(2) مناهل العرفان: 1/ 37.

(3) ينظر: الإتقان: 1/ 128.

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (الإسراء: 1) . والإسراء: سير الليل، قال الخليل:" كل شيء طرق ليلاً فهو سارٍ، وسرى وأسرى لغتان، وقرىء: (سَرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً) وسرى به وأسرى به سواء " [1].

ومن هناك عرج بالرسول ﷺ إلى طبقات السماوات العلا، وإلى حيث شاء الله تعالى، وكان الإسراء والمعراج في مكة قبل الهجرة بسنة، وأكدت السنة النبوية خبر الإسراء والمعراج [2].

والمعراج مأخوذ من مادة عرج يعرج أي صعد، والمعرج الطريق الذي تصعد فيه الملائكة، والمعراج: شبه سلم أو درج تعرج الأرواح فيه إذا قبضت. يقال ليس شيء أحسن منه، إذا رآه الروح لم يتمالك أن يخرج [3]. وسميت ليلة المعراج بهذا الاسم:" لصعود الدعاء فيها، إشارة إلى قوله تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ) (فاطر: 10) ولعروج النبي ﷺ فيها. ويقال: الشرف بعيد المدارج ، رفيع المعارج. ومررت به فما عرجت عليه: ما ألممت، وما لي عليه عُرْجة " [4].

وبزغ نور الفجر والمصطفى حيث تركه أصحابه بعد صلاة العشاء، وقام عليه الصلاة والسلام فصلى بمن معه، ثم جلس فيهم يحدثهم أنه قد أسري به في ليلته تلك. واشرأبت إليه قلوبهم وشدت أسماعهم إلى حديث الإسراء، ولو استطاعوا لأمسكوا أنفاسهم المبهورة، لكي يخلص إليهم صوت نبيهم في أنقى صفائه وتفرده وبهائه [5].

وفي الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام، إلى بيت المقدس والعروج إلى السماوات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة

---

(1) العين: 224.

(2) المستفاد من قصص القرآن: 90/1.

(3) ينظر: العين: 617.

(4) بصائر ذوي التمييز: 41/4.

(5) ينظر: مع المصطفى: 132.

وقدسية عند الله تعالى، وفيه دلالة واضحة أيضاً على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبدالله عليهما الصلاة السلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الذي ابتعثهم الله عز وجل به [1]. وفي قصة الإسراء والمعراج إظهار لمنزلة نبينا محمد ﷺ ، وهي منزلة عظيمة لا تدانيها منزلة أي رسول قبله. ولا عجب في ذلك فالله تعالى فضل بعض رسله على بعض، كما نطق القرآن بذلك.

5 ـ أخلاقه وشمائله

كان رسول الله ﷺ يتصف بصفات كثيرة، ويتمتع بأخلاق عظيمة، ولا غرو في ذلك فإن القرآن الكريم يصور ذلك في عدة مواضع منه، وتوجها في قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: 4). وجاء في تفسير هذه الآية عدة أقوال منها، قيل: " على الإسلام، وقيل: على القرآن، والمعنى: أنت على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن " [2]. وعن عائشة رضي الله عنها أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت:(ألست تقرأ القرآن؟ فقلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ، كان القرآن) [3].

وحرف الجر(على) معناه : " استعلاء الشيء ، تقول : هذا على ظهر الجبل وعلى رأسه " [4]. " فدل اللفظ على أنه مستعمل على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة للعبد وكالأمير بالنسبة للمأمور" [5].

ومن شمائله العطرة وأخلاقه الفاضلة، ما ورد في الصحيحين عن أنس ﷺ ، أنه قال: (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط ، ولا قال لشيء

---

(1) ينظر: فقه السيرة: البوطي: 109.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 159/5.
(3) صحيح مسلم: 340.
(4) اللسان: 425/6.
(5) التفسير الكبير: 74/3.

فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته. وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرْفِ رسول الله ﷺ) [1].

وأخلاق رسول الله ﷺ طبيعية، إذ كان مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي وخصوصية ربانية، وقال عمر بن الخطاب ﷺ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد دعا نوح عليه السلام على قومه فقال: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً) (نوح: 26)، ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا، فلقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيراً، فقلت: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وفي هذا القول من حسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم. ولما تصدى غورث بن الحارث ليقتل رسول الله ﷺ ، وهو منتبذ تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ ، إلا وهو قائم والسيف مسلولاً في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله، فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ ، وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير الناس. فأسلم غورث وصحب النبي ﷺ بعد ذلك [2].

وإن مقام النبوة يستحق مثل هذا الوصف الجميل في هذه الآية الكريمة، إذ تتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود، ويعجز كل قلم ، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله سبحانه وتعالى في ميزان الله لعبد الله، يقول له فيها: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: 4) . ومدلول الخلق العظيم: هو ما هو عند الله عز وجل، مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين [3].

---

(1) صحيح البخاري: 391/2، وصحيح مسلم: 1162.

(2) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 73/1.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 3656/6.

ونبينا محمد ﷺ كان رمزاً لكل فضيلة، كرس حياته للدعوة في سبيل الله تعالى، فلاقى من صنوف العذاب ما لا يطيقه أحد سواه، الذي تخاطبه عائشة رضي الله عنها، فتقول: لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: يا عائشة مالي وللدنيا؟ إخواني من أُولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرمهم الله وأجزل ثوابهم، فأستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم، وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وإخلائي، قالت: فما أقام بعد ذلك شهراً حتى توفي رسول الله ﷺ [1]. بهذه الخلال الطيبة استحق أن يرفعه الله تعالى الدرجات العليا من الجنة، وأن يبعثه المقام المحمود.

6 ـ مكانته بين الأنبياء والرسل

رسول الله ﷺ عظيم في كل شيء، متميز في كل مجالات الحياة، إذ يعد بحق نموذجاً للإنسان الكامل والنبي المرسل. ومما يشير إلى أن الرسول ﷺ ، هو أفضل الرسل الكرام وأشرفهم ؛ وذلك لأن الله تعالى قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم، فقال عز من قائل في شأن إبراهيم عليه السلام: (يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) (الصافات: 104-105). وقال تعالى في حق نوح عليه السلام: (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ) (هود: 48). وقال تعالى في نداء موسى عليه السلام : (يَا مُوسَى لَا تَخَفْ) (النمل: 10). وقال تعالى مخاطباً عيسى بن مريم عليه السلام : (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) (آل عمران: 55).

وهكذا بقية الأنبياء عليهم السلام ناداهم بأسمائهم التي سموا بها، إلا خاتم الرسل ﷺ. فلم يقع في القرآن الكريم الخطاب بيا محمد ﷺ ، بل خاطبه الله تعالى:

---

(1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 95/1.

يا أيها النبي، يا أيها الرسول، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، وهـذا مـن ألطـف الإشارات إلى عظيم قدره، وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق [1].

وأطلق القرآن الكريم صفات مشتركة بين ما وصف الله تعالى بـه الـذات الإلهية، وما وصف به رسول الله ﷺ ، وهي من أسماء الله تعالى الحسـنى، مثـل: الهادي، الرؤوف، الرحيم وغيرها، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّـنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة: 128). فلم يجمع الله اسمين من أسمائه الحسنى لأحد غير رسول الله ﷺ، في قوله تعالى: (رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[2]. وهذا تشريف لم يهبه الله سبحانه وتعالى لأحـد من عباده سوى أكرم خلقه وأشرف رسله [3].

وبين الله تعالى فضل نبيه ﷺ ، بصلاته عليه ثم بصلاة ملائكته، وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه، في قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أُيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً) (الأحزاب: 56). فصلاة الله تعـالى: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء له [4] . وعن معنى الصـلاة قـال الأخفش: " فصلاة الناس عليه دعاؤهم له، وصلاة الله عز وجـل إشـاعة الخيـر عنه"[5].

ومما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز من عظيم قدره ﷺ ، وشريف منزلته على الأنبياء ما جاء في آي الذكر الحكيم:(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَـاقَهُمْ وَمِنْـكَ وَمِن نُّـوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِـنْهُم مِّيثَاقـاً غَلِيظـاً) (الأحزاب: 7). خص الله تعالى محمداً ﷺ ، بفضل لم يؤته غيره. ومما يوضح

(1) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 28/1، والإتقان: 63/3.

(2) ينظر: الكشاف: 455.

(3) أولو العزم من الرسل: 82.

(4) ينظر: صحيح البخاري: 242/3، والتفسير القيم: 263.

(5) معاني القرآن: 269.

ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ ، أنه قال: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم" (1).

وجاءت هذه الآية من باب عطف الخاص على العام. " وإنما خص هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيين تفضلاً لهم، فهم أولو العزم من الرسل وأئمة الأمم " (2) . ولم يعط أحد من الأنبياء فضيلة أو كرامة إلا وقد أعطي رسول الله ﷺ مثلها.

ومما يشير إلى مكانته بين الأنبياء والرسل، ما جاء في تخصيصه بالشفاعة والمقام المحمود، الذي تتحدث عنه آية الإسراء في قوله عز من قائل: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) (الإسراء: 79). وعن المقام المحمود، قال ابن عباس ﷺ : " مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتعطى، وتشفع، فتشفع، ليس أحد إلا تحت لوائك" (3). وأجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة، كما قال النبي ﷺ في هذه الآية: (هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي)(4). "لأن الإنسان إنما يصير محموداً إذا حمده حامد، والحمد إنما يكون على الإنعام، فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاماً، أنعم رسول الله ﷺ ، فيه على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام، وما ذاك إلا شفاعته عند الله تعالى" (5).

وإلى ذلك يشير الحديث الذي رواه ابن عمر ﷺ ، إذ يقول: (إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع ! يا فلان اشفع ! حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود) (6).

(1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 36/1.
(2) الجامع لأحكام القرآن:439/14.
(3) الكشاف: 606.
(4) مسند أحمد: 441/2.
(5) التفسير الكبير: 28/21.
(6) صحيح البخاري: 206/3.

مما تقدم يتضح أن الذي صحت به الرواية والأخبار في المقام المحمود هو أنه الشفاعة [1]. ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة، قال رسول الله حديث رسول الله ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع) [2] . فرسول الله ﷺ ، فضله الله تعالى على جميع الخلائق ، بما فيه إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

7 ـ الدلالة اللغوية لخاتم النبيين

محمد رسول الله ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين من أولي العزم، ختم الله تعالى به الرسالات السماوية، كما ختم بالقرآن الكريم الكتب السماوية. فهو سيد الأولين والآخرين، وسيد الأنبياء والمرسلين، كما أنه يعد من أشهر الشخصيات البشرية، التي أثرت في تاريخ الإنسانية.

ومما وصف به رسول الله ﷺ ، أنه خاتم الأنبياء والمرسلين. والأصل في هذه المادة (خ ت م)، هو دلالتها على بلوغ آخر الشيء. يقال ختم الشيء يختمه ختماً إذا بلغ آخره، وختم الله له بخير، وخاتمة السورة آخرها. وختم فلان القرآن إذا قرأه إلى آخره، واختتمت الشيء: نقيض افتتحته. ومن هذا الباب الختم بمعنى الطبع ؛ لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره [3]. والختام: الطين الذي يختم به على الكتاب، وهو ما جاء في قول الأعشى:

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُودِيُّهَا   وَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خُتُمْ [4]

أي عليها طينة مختومة، مثل: نقض بمعنى منقوض، وقبض بمعنى مقبوض.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: 210/3.

(2) صحيح مسلم: 1149.

(3) ينظر: المقاييس: 324.

(4) الديوان: 187.

وفي هذه المادة عدة لغات هي: الخاتِم والخاتَم، بكسر التاء وفتحها، والخـتم والخاتام والخيتام كلها بمعنى واحد، وهي من الحلي كأنه لأول وهلة ختم به فـدخل في باب الطابع، ثم كثر استعماله لذلك، وإن أعد الخاتم لغير الطبع (1). وتجمع هذه المادة على خواتم وخواتيم، وأنشد الزجاج:

إِنَّ الخَلِيفَـــةَ إِنَّ اللهَ سَـــرْبَلَهُ   سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الخَـوَاتِيمُ (2)

وختام كل مشروب آخره ، وفي التنزيل العزيز، قال تعالى عن شراب أهل الجنة: (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ) (المطففين: 26). أي آخـره؛ لأن آخر ما يجدونه رائحة المسك. وفي هذه الآية عدة أقوال منها: قال ابن مسعود: أي خَلْطُهُ مسك، إذ يوجد في آخره طعم المسك ورائحته. ويقال للعطار إذا اشتري منه الطيب: اجعل خاتمه المسك. وقال مجاهد: معناه طيبه مسك، وهو قريب مـن القول الأول. وقال ابن مسعود أيضاً: عاقبته طعم المسك، فإن أحدهم إذا شرب وجد آخر الكأس ريح المسك (3).

وجاءت هذه الآية في وصف شراب أهل الجنة، بأن رائحة آخره رائحـة المسك. وهو شراب أبيض مثل الفضة، يختمون به آخر أشربتهم. ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها (4).

ويعد رسولنا الكريم محمد ﷺ ، آخر الأنبياء بعثة، وبه اختتمت الرسـالات السماوية، وجاء في محكم التنزيل أنه خاتم النبيين، إذ وصفه الله تعالى بهذه الصفة في آية واحدة من سورة الأحزاب في قوله تعالى: (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَـدٍ مِّـن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً) (الأحـزاب:

(1) ينظر: الصحاح: 287.

(2) اللسان: 26/3.

(3) ينظر: تفسير غريب القرآن: السجستاني: 187، واللسان: 25/3.

(4) ينظر :الجامع لأحكام القرآن:220/19.

40). " قرأ عاصم (خاتم) بفتح التاء والباقون بكسرها " [1]. " فمن قرأ بفتح التـــاء، فمعناه آخر النبيين، ومن كسر التاء فمعناه ختم النبيين" [2]. "والحجة لمن كسر :أنه أراد اسم الفاعل. ودليله قراءة عبدالله بن مسعود: (وخَتَمَ النبيين). وأما من فــتح: فإنه أخذه من الخاتم الملبوس لأنه جمال" [3] . وعن ابن عباس ﷺ ، أنه قال: "خـــتم الله به النبيين قبله، فلا يكون نبي بعده" [4] .

ففي هذه الآية إشارة إلى أن نبينا الكريم ﷺ ، هو خاتم الأنبياء، فـــلا نبـــي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فمن باب أولى لا رسول بعده ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. وعن هذه الآية قال ابن عطية:"هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفاً وسلفاً متلقاة على العمـــوم التـــام ، مقتضية نصاً أنه لا نبي بعده ﷺ " [5].

وجاءت في السنة النبوية أحاديث تشير إلى أنه خاتم النبيـــين، ومـــن ذلـــك الحديث الذي يصور العلاقة بينه وبين الأنبياء الذين سبقوه، إذ يقول رسول الله ﷺ : (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلّا وضعت هذه اللبنة ؛ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) [6].

ومن رحمة الله تعالى بالناس إرسال نبينا محمد ﷺ، إليهم كافة، وهذا جـــزء مما اختص الله تعالى به رسوله الكريم ﷺ ، إذ يقول: (أعطيت خمساً لم يعطهـــن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لـــي الأرض مســـجداً

---

(1) النشر في القراءات العشر:ابن الجزري:261/2، وتقريب النشر في القراءات العشر: 235.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 174/4.
(3) الحجة في القراءات السبع:ابن خالويه:185.
(4) تنوير المقباس: 423.
(5) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:80/13، والجامع لأحكام القرآن:496/14.
(6) صحيح البخاري: 388/2، وصحيح مسلم: 1154.

وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنـــائم، وكـــان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة) [1].

ففي هذا الحديث دليل على أن رسولنا الكريم ﷺ ، بمبعثه اختتمت الرسالات السماوية؛ لأن كل أمة من الأمم أرسل الله تعالى إليها رسولاً، قال تعالى: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر: 24). أي سلف فيها نبي، فما من أمة مضت مـــن بني آدم، إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر إلا العرب. قال ابن عباس ﷺ:" (نذير) رسول مخوف" [2].

وفي رواية أخرى للحديث السابق، فيها إشارة صريحة إلى أنه خاتم الأنبياء، إذ يضيف الحديث خصلة سادسة أعطيها الرسول ﷺ، فيقول: (فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنـــائم، وجعلـــت لـــي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون) [3].

ويشير نبينا الأكرم ﷺ ، إلى أنه قد اختتمت به الرسالات السماوية، ويـــنص صراحة إلى أنه لا رسول بعده ولا نبي، في الحديث الذي يرويه أنس بن مالك ﷺ ، إذ يقول رسول الله ﷺ : (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي، قال: فشق ذلك على الناس، فقال: ولكن المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة)[4]. كما جاء عن أبي هريـــرة ﷺ ، أنـــه قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول:(لم يبقَ من النبوة إلا المبشرات، قـــالوا : ومـــا المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة) [5].

ومن إنعام الله تعالى على العباد وتشريفه لهم، أنه ختم الأنبياء والمرســـلين بهذا الرسول الرؤوف الرحيم، إذ تمت به نعمة الإسلام وأكمـــل الله تعـــالى دينـــه

---

(1) صحيح البخاري: 114/1.
(2) تنوير المقباس: 437.
(3) تفسير القرآن العظيم: 204/6.
(4) صحيح الجامع: الألباني: 1631.
(5) صحيح البخاري:297/4.

الحنيف، ليعلم الناس أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذاب أفاك دجال ضال ومضل (1).

فرسول الله ﷺ، كالأب للأمة في الشفقة من جانبه، وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى، فإن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والأب ليس كذلك، والنبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان، يستدركه من يأتي بعده. وأما من لا نبي بعده، فهو أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد (2).

ولم يغفل الشعر العربي هذه الصفة خاتم النبيين، بل جاء متناغماً مع ما ورد في آي الذكر الحكيم والسنة النبوية، وهذا ما نجده في قول العباس بن مرداس مخاطباً رسول الله ﷺ ، إذ يقول:

يَا خَاتِمَ النُّبَآءِ إنَّكَ مُرْسَلٌ ... بالحَقِّ كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَا
بِأَنَّ الإلَهَ ثَنَى عَلَيْكَ مَحَبَّةً ... فِي خَلْقِهِ وَمُحَمَّداً سَمَّاكَا(3)

ومما جاء في السنة النبوية من أحاديث تشير إلى أنه آخر الأنبياء والمرسلين، ما ورد في الحديث الذي يذكر فيه الرسول ﷺ ، أسماءه، إذ يقول فيه:(لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب) (4). والعاقب: هو آخر الأنبياء (5). وعاقبة كل شيء آخره، وكل من خلف بعد شيء فهو عاقبه (6).

الخاتمة

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 205/6.
(2) ينظر: التفسير الكبير: 186/25.
(3) ينظر:الديوان:95، ومعاني القرآن للأخفش:81، واللسان: 421/8.
(4) صحيح البخاري: 387/2.
(5) النهاية في غريب الحديث: 3/ 268.
(6) الصحاح: 722.

ما هذا البحث إلا قطرة من بحر السيرة العطرة لرسـول الله ﷺ ، تطـرق البحث فيها إلى لمحة يسيرة من حياته ﷺ ، دون الخوض في تفاصيلها ؛ لأن ذلـك يحتاج إلى أسفار من أجل إيفائها حقها من البحث والدراسة.

ومن الضروري تحديد بعض المصطلحات التي يقع فيهـا اللـبس أحيانـاً، وتختلط دلالة الألفاظ على كثير من الناس، وهذا ما جرى بحثه في التمهيـد، عنـد بيان الدلالة اللغوية للنبي والرسول، فتبين من خلال البحث أن هناك صلة ما بـين الكلمتين، هي علاقة خصوص وعموم، فالرسالة أعلى مرتبة من النبوة ؛ لأن كـل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

وتم بحث حياة رسول الله ﷺ ، ضمن محورين: الأول تضمن ولادته، وتبين أن الراجح هو أن ولادته كانت في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، في عام الفيل الذي حمى الله سبحانه وتعالى، البيت العتيق من كيد الأعداء الذين أرسـل علـيهم طيراً أبابيل فجعلهم كعصف مأكول، ومنذ ذلك الحين أصبحت لقريش مكانـة عنـد بقية القبائل؛ لأن الله تعالى تولى الدفاع عن بيته نيابة عنها.

أما المحور الثاني: فوفاته التي حصلت في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول أيضا سنة إحدى عشرة للهجرة، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

وفي الدلالة اللغوية لاسمه ﷺ ، فإن الله تعالى سماه في كتابه المبين محمـداً وأحمد، فمحمد على وزن (مفعل) مبالغة في كثرة الحمد وزيادته. وأحمد على وزن (أفعل) فهو اسم تفضيل من صفة الحمد، لأنه أكثر حمداً من بقيـة الرسـل علـيهم الصلاة والسلام. وفي هذين الاسمين من عجائب خصائصه ﷺ ، فالله تعالى حمـى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه. وأما أحمد، الذي جاء في الكتب السماوية، فقد منـع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره. وكذلك محمد لم يسم به أحد من العـرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل ولادته.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ، الأربعين من عمره نزل عليه الوحي فـي غـار حراء، وتتابع الوحي إليه لينهض بأعباء النبوة والرسالة التي لا يحملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى لهم.

ومما كان له أثر كبير في حياة رسول الله ﷺ ، هو مشهد الإسراء من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن ثَمَّ العروج إلى السماوات العلا. وفي الاقتران الزمني بين الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، دلالة واضحة على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من نبينا محمد بن عبدالله وعيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من روابط الدين الذي بعثهم الله عز وجل به. وفي قصة الإسراء والمعراج إظهار لمنزلة نبينا محمد ﷺ، وهي منزلة عظيمة لا تدانيها منزلة أي رسول آخر.

وفي مجال الأخلاق فقد فاق النبيين في الخلق والخلق. وقد سئلت عائشة (رضي الله عنها) عن خلق رسول الله ﷺ ، فأجابت بأحسن الجواب وأبلغه عندما قالت: كان خلقه القرآن، وكان قرآناً يمشي بين الناس يأتمر بأوامره وينتهي عما عنه نهى.

وإذا كانت الأخلاق ترتبط بالصفات المعنوية للإنسان، فإننا نلمس في الشمائل بعداً آخر، هو فن التعامل مع الآخرين، تقول العرب: إنها لحسنة الشمائل، أي شكلها وحالاتها، ورجل كريم الشمائل، أي أخلاقه وعشرته. ومما يتجلى عند رسول الله ﷺ ، من شمائله العطرة ما قاله أنس رضي الله عنه : خدمت رسول الله ﷺ ، عشر سنين، فما قال لي أُفٍّ قط.

ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، فلا نبي بعده وهذا مما أجمع عليه المسلمون وعرف من الدين بالضرورة. فالدين الحق واحد بعث جميع الأنبياء للدعوة إليه وهو الإسلام، وأهل الكتاب يعلمون وحدة الدين، ويعلمون أن الأنبياء جاءوا ليصدق كل واحد منهم الآخر فيما بعث به من الدين.

ونبينا محمد ﷺ ، يعد من أفذاذ الخلق الذين حلقوا في أعلى المستويات. ورسالته كانت في القمة، إذ اكتملت الرسالات السماوية فيها، وتمت نعمة الله تعالى على عباده الصالحين. وحياة محمد ﷺ، هي الأسوة الحسنة التي يقتفيها كل مسلم، وهي منبع التشريع العظيم الذي يدين به، فمن عرف محمداً ﷺ ،عرف الحق في حياته، وكان له نوراً يمشي به في الناس، واستظل بظله الوارف وإن لم يعش معه.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العـــالمين أولاً وآخراً، الذي بفضله ونعمته تتم الصالحات.

المصادر والمراجع

1. الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، المكتبة التوفيقية، القاهرة (د – ت).
2. أسباب النزول: الواحدي، مطبعة مصـــطفى البـــابي الحلبـــي وأولاده ط1، 1379هـ- 1959م.
3. إعراب ثلاثين سورة: ابن خالويه، دار التربية، (د- ت).
4. أولو العزم من الرسل: د. طه وادي، دار النشر للجامعـــات مصـــر، ط2، 1418هـ- 1998م.
5. البداية والنهاية: ابن كثير، مطبعة السعادة بمصر، 1932م.
6. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبـــادي، القـــاهرة، 1421هـ- 2000م.
7. التعريفات: الجرجاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د- ت).
8. تفسير غريب القرآن: السجستاني، دار التراث القاهرة، (د – ت).
9. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 1426هـ- 2005م.
10. التفسير القيم: ابن قيم الجوزية، دار الهيثم القاهرة، ط1، 1426هـ- 2005م.
11. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: الرازي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د- ت)
12. تفسير الكشاف: الزمخشري، دار المعرفة، بيـــروت- لبنـــان، ط1، 1423هـ- 2002م.
13. تقريب النشر في القراءات العشر: ابـــن الجـــزري، دار الحـــديث القاهرة، 1425هـ- 2005م.

14. تنوير المقباس في تفسير ابن عبـــاس: الفيروزآبـــادي، دار إحيـــاء التراث العربي، بيروت، 1423هـ- 2002م.
15. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي،راجعه وضبطه د.محمـــد إبـــراهيم الحفناوي وآخرون، دار الحديث القاهرة،1428هـ ــ2007م.
16. الحجة في القراءات السبع: ابن خالويه، تحقيق:أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2 ،2007م ــ1428هـ.
17. ديوان الأعشى الأكبر:اعتنى به وشرحه:عبد الرحمن المصـــطاوي، دار المعرفة بيروت، ط1، 1426هـ-2005.
18. ديوان العباس بن مرداس ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط1 ،1991م.
19. الرحيق المختوم: المباركفوري، دار العلوم عمان، ط1 1423هـ- 2002م.
20. السيرة النبوية: ابن هشام، دار االتقوى، مصر، (د – ت).
21. الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت ط3، 2006م- 1427هـ.
22. صحيح البخاري: البخاري، المكتبة التوفيقية، القاهرة (د – ت).
23. صحيح الجامع الصغير وزياداته: الألباني، طبع المكتب الإســـلامي (د– ت).
24. صحيح مسلم: مسلم، مكتبة الإيمان، المنصورة ،أمام جامعة الأزهر، (د – ت).
25. الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، تحقيق:أبي عمرو عماد زكـــي البارودي، المكتبة التوفيقية، أمام الباب الأخضرــ سيدنا الحسين، 1419هـ.
26. فقه السيرة:د.محمد سعيد رمضان البـــوطي، دار الفكـــر بيـــروت، 1398هـ- 1978م.
27. فقه السيرة:محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ط7، 1979م.

28. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيـروت، 1391هـ- 1971م.
29. الكتاب: سيبويه، دار الجيل للطباعة، القـاهرة، ط2، 1402هـ- 1982م.
30. كتاب العين:الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار الحرية للطباعة والنشر، 1986م.
31. لسان العرب: ابن منظور، المطبعة المصـرية للطباعـة والتـأليف والنشر(د ـ ت).
32. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية، تحقيق:الرحالي الفاروقي وآخرون، الدوحة، قطر،ط1، 1398هـ ـ1977م.
33. المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: د. عبدالكريم زيـدان، مؤسسة الرسالة، ط1، 1418هـ- 1997م.
34. المسند: للإمام أحمد بن حنبل، دار المعارف بمصـر، 1368هـ- 1949م.
35. المصباح المنير في غريب الشرح الكبيـر، الفيـومي، دار الكتـب العلمية بيروت، ط1، 1414هـ- 1994م.
36. معاني القرآن: الأخفش، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1423هـ- 2002م.
37. معاني القرآن وإعرابـه: الزجـاج، عـالم الكتـب بيـروت، ط1، 1408هـ- 1988م.
38. معجم الصحاح: الجوهري، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1426هـ 2005م.
39. معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1422هـ- 2001م.

40. مع المصطفى: بنت الشاطئ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1392هـ- 1972م.
41. المفردات في غريب القرآن: الأصفهاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د – ت).
42. مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، (د. ت).
43. مواهب الرحمن في تفسير القرآن: المدرس، دار الحرية للطباعة بغداد، 1409هـ- 1989م.
44. النبوة والأنبياء: الصابوني، المكتبة العصرية بيروت، 2007م- 1428هـ.
45. النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان،ط3، 2006م ــ1427هـ.
46. النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، القاهرة، 1317هـ .

المحتويات